

وكان إلى جانب تلك الطائفة التي لم تفرد لهجاء قولها ، طائفة أخرى اضطرت إلى إفراده بالقول اضطارا ، كما رأينا في مناقضات العباس بن مرداس التي شبت بينه وبين خفاف بن ندبة ، وخوات بن حبير ، وعبد الله بن جندل ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في الحديث عن العباس .

ويلاحظ أن العباس - مع ذلك - لم يخرج على المنهج العام ، من التزام عفة اللسان ، والبعد عن الإفخاش والإفذاع ، وإن ماله إلى التصريح في بعضها كما في قوله :

أكليب مالك كل يوم ظالما	وانظلم أنسكد وجهه ملمون
فأفعل بقومك ما أراد بقومه	يوم القدير سميك المطعون
وأظن أنك سوف تلقى مثلها	في صفحتك سمانها مسون
قد كان قومك يحسبونك سيذا	وإخال أنك سيد مغبون

وليس البعد عن الإفخاش والإفذاع هي سمة هذا الهجاء ، بل إن من سماته كذلك البعد عن المبالغات والتويل ، فهو قريب إلى الحقيقة كما تقدم ، وكما رأينا في هجاء حسان أنا سفيان بن الحارث . بل إن روح الإسلام لتتضح في هجاء الشعراء المسلمين ، حين يضطرون إلى الرد على من هجأهم من المشركين ، كما رأينا في هجاء كعب بن زهير ، وقصارى ما كان يضمه الشاعر المسلم أهاجيه تسمير الكفار بالثالب أو بالكفر ، على ملاحظه صاحب الأغاني في قوله : إن حسانا وكعبا كانا لا يمارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والآثر ، ويميراهم بالثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يميزهم بالكفر ، فكان في ذلك الزمان أشد النول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلخوا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة (١) .

ولم يكن هجاء المشركين وقفا على هؤلاء الشعراء الثلاثة ، فقد انبرى كثير من شعراء المسلمين يدافعون عن الرسول وصحبه ودعوته ، ويردون عنهم هجاء من يتعرض لهجائهم من شعراء المشركين ، فالصع في ذلك الجو ميدان المناقضات .

وهكذا بدأ أثر الحضارة الإسلامية واضحا جليا في فن الهجاء ؛ وكان قصارى